فى اصول البحث العلمى وتحقيق النصوص

رمضان عبد التواب

يقوم البحث العلمى فى الوقت الحاضر ، على أسس علمية متعارف عليها ، وسأقتصر في هذه المقالة على جانب واحد منها ، وهو جانب مصادر البحث ، لما لهذا الموضوع من أهمية كبرى فى النتائج التى يصل اليها الباحث فى بحثه ، ولارتباطه من جانب آخر بموضوع الخط العربى ، الذى أصيب بداء التصحيف والتحريف ، منذ أول نشأته ، بسبب تشابه أكثر حروف الهجاء العربية ، واختلاف أماكن النقط وعددها .

لذلك ، فان أى باحث فى العلوم الانسانية ، يجب - فى رأيى - أن يكون على قدر من الخبرة بتحقيق النصوص ، حتى لا يثق فى المصدر الذى يعتمد عليه وثوقا مطلقا .

وقد ارتبطت فى الأذهان ، فكرة تحقيق النص باعداده للنشر ، وليس الامر كذلك تماماً ، بل أن أى باحث مطالب بتحقيق النص ، الذى يستنبط منه نتائج معينة ، قبل أن يقدم على استنباط هذه النتائج ، وليس من اللازم أن يكون ذلك النص مخطوطا ، فكثير من الكتب المطبوعة التى بين أيدينا ، لا تفرق كثيرا عن المخطوطات ؛ اذ ان الذين تولوا طبعها ونشرها ، طائفة من الوراقين وبعض الادعياء ، الذين لا يدرون عن فن تحقيق النصوص شيئا ، ولذلك جاءت هذه المطبوعات فى كثير من الاحيان مليئة بالتصحيف والتحريف ، نصوصها مضطربة مشوشة ، تبعد كثيرا عن الاصل الذى كتبه مؤلفوها .

ويعين على عملية تحقيق النص ، أن يتعقبه الباحث فى مصادره الاولى ، ولا يقتنع به فى أول مصدر تقع عليه عينه ، وبمعنى آخر لا يصح للباحث أن يكتفى بالمصادر الثانوية فى الموضوع ، وهى التى تستقى معلوماتها من مصادر أقدم منها ؛ فاذا ذكر أحد اللغويين المحدثين قولا نقله عن « المزهر » للسيوطى مثلا ، فان على الباحث أن يرجع الى كتاب « المزهر » نفسه ، فاذا رأى السيوطى ينقل هذا القول عن ابن جنى مثلا ، فان عليه أن يبحث عن هذا النص فى كتب ابن جنى ، التى حفظتها لنا الايام ، ويعد ذلك فى كثير من الاحيان مهمة صعبة ، الا اذا نص السيوطى مثلا على اسم كتاب ابن جنى ، كالخصائص ، أو سر صناعة الاعراب ، أو غير ذلك .

وكلما عثر الباحث على النص الواحد فى كتب متعددة ، كان أوثق لهذا النص ؛ لان العبارة قد تصاب بتحريف فى أحد المصادر ، فيقومها المصدر الثانى ، ويكفى للتدليل على هذا مراجعة النص الذى

اقتبسه السيوطي في القبائل التي تؤخذ عنها اللغة ، من كتاب الالفاظ والحروف لابي نصر الفارابي[1] ، في كتابيه : « المزهر » و « الاقتراح » ، ومقارنة كل واحد منهما بالآخر ، حتى يتبين لنا صدق هذا القول:

ففي المزهر (٢١١/١) : « ... فانه لم يؤخذ لامن لخم ولامن جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان واياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن ؛ فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبدالقيس وأزد عمان ؛ لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ... » .

وفي الاقتراح (ص ١٩) : « ... فان لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام ، فانهم كانوا مجاورين لاهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ، ولا من غسان ، ولا من اياد ؛ فانهم كانوا مجاورين لاهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية ، ولا من تغلب ولا النمر ؛ فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لانهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من عبدالقيس ؛ لانهم كانوا سكان البحرين ، مخالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عمان ، لمخالطتهم للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم للهند والحبشة ... » .

وهكذا نرى من مقارنة النصين في كل من « المزهر » و « الاقتراح » أن كلمة : « اليمن » ، وكلمة : « للقبط » في المزهر ، تحريف لكلمتي : « النمر » و « للنبط » ، وهما في كتاب الاقتراح ، وصحتهما أوضح من أن يساق عليها الدليل .

(١) لا يوجد هذا النص في كتاب الحروف ، لابى نصر الفارابى ، الذى نشره محسن مهدى — في بيروت سنة ١٩٦٩ .

وقد يكون النص موجودا في كتب متعددة ، غير أنه منقول فيها كلها عن كتاب واحد محرف ، وحينئذ لا يغني التعدد هنا شيئا ؛ ومن أمثلة ذلك نص المزهر المحرف في الموضع السابق ، الذى أخذه بتحريفه دون فطنة الى ذلك ، كل من الشيخ محمد علي الدسوقي في كتابه : تهذيب الالفاظ العامية (ص٤٢) ، والمستشرق أوجست فيشر في كتابه : المعجم اللغوى التاريخي (ص ١٢–١٣) ، والاستاذ عبدالوهاب حمودة في كتابه : القراءات واللهجات (ص ٢٩) والدكتور مهدى المخزومي في كتابه : مدرسة الكوفة (ص ٥٤) ، والدكتور صبحي الصالح في كتابه : دراسات في فقه اللغة (ص١١٤) ، والدكتورة بنت الشاطيء في كتابها : لغتنا والحياة (ص ٣٢) وغيرهم .

وخلاصة القول أن الباحث اذا وجد في المصادر الثانوية ما يحتاجه فعليه أن يرجع به الى المصادر الاصلية ، ليتحقق من صحته ، وقد عودتني التجارب الكثيرة أن العودة الى المصادر الاصلية ضرورية جدا ؛ لان كثيرا من هذه المصادر الثانوية ، قد تسيء فهم المصدر الاصلي أحيانا أو يصيبها التصحيف والتحريف أحيانا أخرى . وسأضرب هنا بعض الامثلة التي صادفتني في أبحاثي المختلفة:

فقد رأيت في كتاب « رابين » : Rabin, Ancient west Arabian, (صفحة٢٠٢/٢٣) النص التالي :

"The dialect of Kab'az (sic) is reported to have pronounced sa'q instead of sāq (leg) (Mukhasass II 52)".

وترجمته : « يروى عن قبيلة كبعز أنها كانت تنطق سأق بدلا من ساق (المخصص ٥٢/٢) » .

وكان من الممكن أن أقتبس هذا النص ، للاستشهاد به على أنه الى جانب قبيلة طيء ، توجد قبيلة أخرى تسمى قبيلة «كبعز » ، تهمز الكلمات

التى لا تستحق الهمز أصلا ، وهو ما يسمى لـدى علماء الغرب overcorrectness أو Hyperurbanismus وأسميه أنا بالحذلقـة أو المبالغـة فى التفصح (انظر كتابى : لحـن العامـة والتطـور اللغـوى ص ١٣٠) ، فان الاحساس بأن نطق كلمة « راس » أو « ياكل » أو غيرهما نطـق عامي يقـابل النطق الفصيح : « رأس » و « يأكل » ـ هذا الاحسـاس كان يقود أحيانا الى الاعتقـاد بأن حـروف المـد الاصلية ، مثل : « ساق » و « بـاز » و « موقـد » (من أوقد) نطق عامى ، وأن الفصيح فيه « سأق » و « بأز » و « مؤقد » عن طريق المبالغة في التفصح .

أقول : كـان من الممكـن أن أقتبس نص Rabin السابق دليلا على أن قبيلة « كبعز » تبالغ فى التفصح فى ناحية الهمز ، تماما مثل قبيلة طيء ، التى اشتهر عنها أنها تقول : « السؤدد » بدلا مـن « السودد » (وهو من السيادة ، وفعله : سادیسود ، فأصله الواو لا الهمز) ، غير أن المنهج العلمى يحتم على المرء هنا أن يرجع الى المصدر الرئيسى ، الذى أخـذ عنـه Rabin هذه النقطة ، وهـو كتـاب « المخصص » لابن سيدة (٢/٥٢ : ٧) ، وبالرجوع اليه وجدت النص فيه كما يلى : « أما قراءة من قرأ : وكشفت عن سأقيها ، فانه همز ؟ لمشـابهة الالف الهمزة ، وقيل هي لغة كَبْأَزٍ ، أي أن همز كلمة : « سأق » لغة من اللغات العربية ، تماما مثل همز كلمة « بأز » عند من يهمزها بدلا من « باز » بمعنى « صقر » .

والذى أوقع Rabin فى هذا الخطأ ، أنـه قرأ العبارة فيما يبدو : « وقيل هى لغة كَبْأَزٍ » ، وعندما نقلها بحروفه اللاتينية ، اسـتبدل بالرمـز المصطلح عليـه بين المستشرقين لكتابة الهمزة وهو (د) رمزَ العين المصطلح عليه عندهم ، وهو رأس عين صغيرة (ع) سهوا منه ، وبذلك صارت الكلمة بالحروف اللاتينية Kab'az . غـير أن Rabin قد شك فى وجود قبيلة عربية بهذا الاسم ، وهـو ما دعـاه الى أن يضع بعدها بين قوسين كلمة (sic) ومعناها باللاتينية : « كذا وردت الكلمة ، ولم أتبين وجهها » .

وهكذا يتبين لنا بالطـريق العمـلى ، كيف أن الرجوع الى المصادر الاساسية ، ضرورى لتصحيح الخطأ ، الذى تقع فيه المصادر الثانوية أحيانا .

وهذا مثال آخر يبين ضـرورة الرجـوع الى المصادر الاساسية : فقـد ذكر « فلوجل » Flügel فى كتابه : «مدارس العرب النحويـة » ص ١٢١ Die grammatischen Schulen der Araber فى ترجمة الكسائى (عن الفهرست لابن النـديم) ما يلى :

"Der Fihrist wiederum erzählt, dass er den Hörsaal des Mu'ād al-Harrā' besucht, und. während die übrigen Anwesenden einfache Überwürfe (حلل) über den blossen körper trugen, (allein) mit einem röthlichen Mantel (كساء وردا) bekleidet war".

وترجمة العبارة : « ويحكى الفهرست أيضـا أنه (أى الكسائى) كان يزور مجلس معاذ الهراء ، وكان سائر الحاضرين يرتدون الحلل على العرى ، أما هو فكان يرتدى وحده كساء أحمر » .

واذا راجعنا نص الفهرست (ص ١٠٤) وجدنا فيه ما يلى « وانما سمى الكسائى ؟ لانه كان يحضر مجلس معاذ الهراء ، والناس عليهم الحلل ، وعليـه كساءٌ ور داءٌ . ويهمنا هنا العبارة الاخيرة ، وهي التى فهمها Flügel خطأ ، والظاهر أنه قرأ كلمة: « ورداء » (التي كتبت في مخطوطة الفهرست ، التي كان يستخدمها بلا همزة) : « وَرْدًا » ، وفهمها

على أنها صفة للكساء ، أى أنه كساء فى لون الورد ، فيكون أحمر اللون ، وفاته أنه لو كان الامر كذلك، لوجب أن تكون العبارة : « وعليه كساء وردي » !

ومن أمثلة المصادر الثانوية المضرة ، ما يوجد فى كتاب : « اعراب ثلاثين سورة » لابن خالويه (ص ١٢٨) من قوله : « وقال عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الحيوان : والتين والزيتون : دمشق وفلسطين » ؟ فقد يظن من يكتفى بهذا النص ، أن الجاحظ يفسر التين والزيتون بهذا التفسير ، غير أن من يبحث عن هذا فى كتاب الحيوان ، يجد الجاحظ يحكى هذا الرأى عن غيره ، ويرفضه ويهزأ به بشدة فيقول (٢٠٨/١) : « وقد قال الله عزوجل : والتين والزيتون ، فزعم زيد بن أسلم أن التين دمشق ، والزيتون فلسطين ، وللغالية في هذا تأويل أرغب بالعترة عنه وعن ذكره ، وقد أخرج الله تبارك وتعالى الكلام مخرج القسم ، وما تعرف دمشق الا بدمشق ، ولا فلسطين الا بفلسطين » ، ثم مضى الجاحظ بعد ذلك يعدد فوائد التين والزيتون ، وقال بعد ذلك : « وليس لهذا المقدار عظمهما الله عزوجل، وأقسم بهما ونوه بذكرهما » .

فأين من يعتمد على هذا النص فى مصدره الاصلى ، ممن يعتمد على نص مبتور ، فى مصدر ثانوى ، ينسب الى الجاحظ رأيا لم يقل به ؟

ومثل ذلك ما فى الفهرست لابن النديم ، عند قوله فى ترجمة المبرد (ص ٩٥) ما نصه : « قال أبو سعيد رحمه الله : وقد نظر فى كتاب سيبويه فى عصره جماعة لم يكن لهم كتب عنه ، يعنى المبرد ، مثل أبى ذكوان القاسم بن اسماعيل ... » وذكر شخصين آخرين هما عسل بن ذكوان وأبو يعلى بن أبى زرعة .

وإذا كان الباحث العجلان يكتفي أحيانا بمثل هذا النص ، لينى عليه أحكاما ، فيدعى أن أبا ذكوان وزميليه كانوا من تلامذة المبرد ، غير أنهم لم يؤلفوا كتبا أخذوا مادتها عن المبرد ، فان ذلك كله خطأ ؛ اذ انه ما قال أحد ان هؤلاء الثلاثة كانوا من تلامذة المبرد .

ويقضى المنهج العلمى فى هذه الحالة ، أن تبحث المصادر التى اعتمد عليها الفهرست فى هذه النقطة ، وقد رأينا النص يبدأ بعبارة : « قال أبو سعيد رحمه الله » ، فاذا عرفنا أن ابن النديم كان تلميذاً لابى سعيد السيرافى ، وأن هذا الاخير قد ألف كتابا سماه : « أخبار النحويين البصريين » ، كان علينا أن نبحث فيه عن النص الذى ذكره ابن النديم فى كتابه الفهرست ، وبالفعل نجد النص في أخبار النحويين البصريين للسيرافى (ص ٨٠) وفيه : « وقد كان من نظرائه (أى المبرد) فى عصره ، ممن قرأ كتاب سيبويه على المازنى : جماعة لم يكن لهم كنباهته ، مثل أبى ذكوان ... وعسل بن ذكوان ... وأبى يعلى بن أبى زرعة » .

ومن هذه المراجعة للمصدر الاساسى ، نعرف أن عبارة : « لم يكن لهم كتب عنه » المذكورة فى الفهرست ، ليست الا تحريفا للعبارة الاصلية : « لم يكن لهم كنباهته » ، ويظهر أن السر فى هذا التحريف أن الالف فى « نباهته » قصرت بعض الشىء، وكذلك الهاء لم تكن واضحة تماما ، فقرئت الكلمة لهذا السبب « كتب عنه » .

ويطول بنا الحديث ، اذا ذهبنا نعرض الامثلة الكثيرة ، التى تؤكد ضرورة تحقيق النص قبل استخدامه ، على أي نحو في البحوث العلمية .

هذا ، وترتبط فكرة الالحاح على رؤية النص الواحد فى أكثر من مصدر ، للتحقق من صحته والاطمئنان الى خلوه من التصحيف والتحريف ،

بفكرة تخريج النصوص الشعرية فى النص الـذى يراد نشره ؟ فقد سار جلة المحققين من المستشرقين والعرب ، على الاستقصاء فى هذه المسألة ، والتنبيه الى جمهرة المواضع التي ورد فيها هذا البيت أو ذاك ، فى المصادر التى بين أيديهم •

وقد يعيب بعض الناس هذا المنهج ؟ اذ يرون فيه مبالغة واسرافا فى التخريج ، كما ينادى بعضهم بالاكتفاء بمصدر أو بمصدرين ، ولا سيما فى الشعر المشهور المتداول •

وما درى هؤلاء وأولئك أن هـذا التخـريج المستقصى ، قد يفيد باحثا أو محققا ، يجد أمامه هذا البيت أو ذاك فى سياق نشـري غـير مفهـوم ، اما لاختصار مخل فى العبارة ، واما لتصحيف أو تحريف ، أصابا هذا النص فى كتـاب مطبـوع أو مخطوط ، والوسيلة المأمونة العاقبة فى مثل هـذه الحالة ، هى البحث عن مثل هذا البيت فى مصادره المختلفة ، لعله يعثر فى بعضها على سياقه الخالى من الاضطراب والتشويش •

مثل هذا الباحث أو المحقق يحمد لهذه الطريقة المستقصية فى تخريج الاشعار ، أن وضعت أمامـه جمهرة مصادر البيت الذى يهمه ، ووفرت لـه كثيرا من الجهد والمشقة •

وهذا مثال واحد يبين مدى صدق هذا القول ؟ ففى شرح قصيدة عدى بن الرقاع ، التى نشرهـا الاستاذ عبدالعزيز الميمني فى الطرائف الادبيـة (ص ٩٢-٩٧) شُرِح البيت التالى :

وبهـا مناخ قلّمـا نزلت بـه
ومصمّمات من بنات معاهـا

بما يأتى : « ••• مصمعات يعنى بعذاب ملزقات محددات سعرات لعله (كذا) أكلها وشربها » •

كذا ساق الميمنى نص المخطوطة كمـا هـو بتحريفه ، ولم يتبين وجه الصواب فيه ، فكتب بعده كلمة (كـذا) ، ولو أتيح للاستاذ الميمنى أن يعرف مصادر هذا البيت ، لرأى فى سياق بعضها ، ما يعينه على اصلاح هذا التحريف ، الذى شوه وجه النص ؟ ففى لحن العوام للزبيدى (ص ١٧٢) : « وقـال أبو نصر : أتانا بثريدة مصمّعة ، اذا رفعها كالصومعة ، وحدّد رأسها ، ويقال : بعرات مصمعات اذا كانت ملتزقات عطاشاً فيهن ضمر • وأنشد يعقوب لعدى بن الرقاع : ولها مناخ ••• البيت » •

وعلى ضوء نص « لحن العوام » يمكن اصلاح الخلل الواقع فى نص « الطرائف الادبية » على النحو التالي : « مصمعات يعني بعرات ملتزقات محددات بعرات لقلة أكلها وشربها » •

على أن الاكتفاء بمصدر أو بمصدرين ، قـد يجر الى ادعاء خطأ نسبة بيت ، وردت فى مصادر لم يرها المحقق ، أو القول بتحريف أو تصحيف فى رواية ، لم يجهد المحقق نفسه فى البحث عنها ، أو ترك التصحيف والتحريف كما هو ، لعثوره عليه مرة أخرى فى مصدره الذى اكتفى به •

وقد وقعت أنا فى بعض ذلـك ، عنـد تحقيقى كتاب « لحن العوام للزبيدى » ؟ اذ ادعيت (فى صفحة ١٣٩) أن رواية بيت الفرزدق •

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المـال الا مسحتا أو مجـرف

محرفة فى ديوانه ، وأن الصواب : « مجلف » ، غير أن من يطلع على كتاب « الابدال » لابـى الطيب اللغوى «٢/٧٠» يعرف أن البيت يقـال بالروايتـين : « مجلف » أو « مجرف » !

هذه هى بعض علامات على الطريق ، تسندهـا خبرة متواضعة فى معالجة النصوص ، وتجارب شاقة فى ميدان البحث العلمي ، وبالله التوفيق •